تمهید تاریخی

obeikandl.com

obeikandl.com

استقر رأى العلماء على أن التربية عملية تنصرف فى جوهرها إلى إعداد الصغير إعداداً يؤهله لكى يكون فرداً صالحاً نافعاً لنفسه ولمجتمعه . .

ويتسع مفهوم التربية ليشمل مجالات ثلاثة هى : تنمية الجسم تنمية سلية عن طريق الرعاية الصحية الشاملة المستمرة . . وتهذيب النفس بما ينطوى عليه من رقى فى المشاعر والوجدان والتمسك بالقيم الخلقية . . وتثقيف الفكر وتحصيل المعارف بما يؤكد وجود الفرد برؤية صالحة نافعة لليوم والغد الأفضل . .

وهى أضلاع ثلاثة لمثلث التربية قد تطول أو تقصر حسب ما يوليه المجتمع والبيئة من أهمية لأحدها دون الآخر . . وإن كانت التربية الجسدية تمثل القاعدة دائما لهذا المثلث . . ولنا أن نذكر فى هذا المجال عبارة جامعة لمطالب التربية أوجزها الحكيم المصرى القديم (عنخ شا شنقى) حين قال :

(اعمل على تعليم ولدك أن يكتب وأن يحرث وأن يصيد وأن يستخدم الشص على مدار العام . .) .

وطبيعى ونحن أمام تعدد لجوانب التربية أن يتعدد القائمون عليها والمسئولون عنها من الأسرة إلى المدرسة إلى المجتمع . .

وإن كانت أدوارهم غير منفصلة أو متباعدة . .

وفى أبسط أشكال المجتمعات القديمة . . لم تكن التربية بعيدة عن الاهتمام . . ويبدو أن جانباً منها قد اتخذ شكل الغريزة بدليل وجود ألوان منها لدى الحيوان نفسه حتى وإن كان متوحشاً . .

ولن نحتاج إلى أدلة كثيرة تؤكد لنا جوانب التربية الجسدية والرعاية الصحية للأطفال فى أى مجتمع قديم . . لكن رحلتنا هنا سوف توجز ما كانت عليه التربية الثقافية والفكرية والأخلاقية باعتبارها ضلعى المثلث القائمين على قاعدة التربية الجسدية . . واللذين يلتقيان فى عناق من أجل تنشئة الصغير على الخير والمحبة والتفكير السليم . .

ويحسن بنا أولاً أن نعرِّف ما المقصود بالتربية . .

فالتربية Education اصطلاح مشتق من الفعل اللاتينى Educo . . وهو مكون من مقطعين E وتعنى Out Of (خارجاً) وDuco وتعنى I lead (أقود) أى أنها مشتقة من الفعل (ستخرج)[1] .

هى إذن عملية تعبر عن استخراج الوعى أو إيقاظ المقدرة العقلية الكامنة لدى الإنسان .

وتقول المعاجم العربية :

---

(١) تطور النظرية التربوية - صالح عبدالعزيز - دار المعارف ١٩٦٤ صـ٢٢

رباه : نمَّاه وغذَّاه ونشَّأه . . ونمَّى قواه الجسدية والعقلية والخلقية .

وتربى : تنشَّأ وتغذَّى وتثقَّف . !

وبعيداً عن النظريات المختلفة المبثوثة فى المراجع عن التربية . . فإن هذه العملية قد لازمت الإنسان منذ وجد على ظهر الأرض . . باذلاً جهده العضلى والعقلى فى السيطرة على الأرض . . والوصول إلى كل ما يهيىء له حياة آمنة فاضلة . .

ويمكننا أن نوجز أشكال التربية عبر التاريخ فى الإطارات الآتية :

أولاً : التربية فى المجتمع البدائى :

كانت التربية البدائية تعنى الحياة نفسها كما اتخذت أشكالاً وصوراً عديدة أهمها تلك الطقوس التى صاحبت المولود حينما يجىء إلى الحياة . . والتى كانت تعنى المظهر الأول لدمج الفرد بزمرته . .

فالوليد يظل خلال السنوات الأولى من عمره فى كنف النساء . . ثم حينما يدخل طور البلوغ يحتاج إلى طقوس جديدة أخرى تؤكد هذا الاندماج . . وتحدث تغييراً شاملاً لدى الناشىء وكأنه يدخل مجال ولادة جديدة . . وهى طقوس يتم إعدادها طويلاً وتتم خلال مراقبة دقيقة يقوم بها شيخ القبيلة أو الجماعة . . ويتمرس الناشىء عليها فى تجارب قاسية وأليمة . .

وإلى جانب الإهتمام بالتربية الجسدية . . فإن التربية الثقافية والفكرية كان يغلب عليها الطابع العملى وهدفها أن تجعل الطفل قادراً على تلبية حاجاته ثم حاجات أسرته من بعده .

وتتعلق هذه التربية ـ للصبى ـ بالأعمال الزراعية ورعى الماشية وشحذ الأدوات وصقلها أما ـ الفتاة ـ فهى تتعلم بناء الأكواخ أو جمع الفواكه وصنع السلال . .

ومثل هذه التربية الفكرية ليس من شأنها دون شك أن تقدم لقابليات الناشىء إعداداً منهجياً عقلياً . . غير أنها تشحذ القابليات والمهارات الضرورية التى يستلزمها طراز الحياة لدى تلك الأقوام البدائية[1] .

وما يدهشنا لدى تلك الأقوام البدائية ذلك الإرهاف الرائع فى الإدراكات الحسية فالسمع عندهم مرهف . . والبصر حديد . . والذاكرة لا تنسى . . والخيال حاد يقظ . . تشهد عليه خطبهم وأغانيهم الحربية . . وقدرتهم الراقية المدهشة على التفكير .

ويمكن أن نخلص إلى أن التربية البدائية تتم فى نطاق الأسرة . . حيث يزاول الطفل المهن التقليدية وأنماط السلوك من خلال عملية التقليد للكبار وتلك هى التربية غير الرسمية والتى تعد عملية تنشئة اجتماعية أو تثقيفية . . ويتركز نسق الأدوار فيها بين جيل يُعلِّم وجيل يتعلَّم يسوده النمط التلقائى . . وتعتبر التربية هى

(١) التربية عبر التاريخ د. عبدالله عبدالدائم ـ دار العلم للملايين ١٩٨٤ ـ صـ٢١

الحياة نفسها فى مثل تلك المجتمعات البدائية[1] .

ثانيا : التربية القديمة فى الهند

يميز المجتمع الهندى القديم صفتان : الروح الطبقية من الوجهة الاجتماعية . . ومذهب الحلول من الوجهة الدينية . . ولهذا اجتهد الكهان الهنود فى قتل كل حرية للفرد . . بما يلقنونه من مذاهب التقشف والعزوف عن الحياة وازدرائها . . حتى أننا نستطيع أن نؤكد بارتياح أن الإنسان الهندى القديم كان يولد ويحيا فى ظل عبودية تكبل كل استعداد شخصى وكل قدرة خاصة . .

وكان النظام الهندى ـ والذى أكده بوذا فيما بعد ـ يبرهن على أن سبب الشر هو الأهواء البشرية ولهذا أباح العقاب الجسدى . . وكان المعلمون يستخدمون ـ عدا العصا ـ بعض الوسائل الأخرى كأن يصبُّوا الماء البارد على المتعلم ـ كنوع من العقاب . .

أما الدراسات العالية فقد كانت وقفاً على الكهان الهنود . .

ثالثا : التربية القديمة فى الصين :

يعد علماء التربية ما كان فى الصين القديمة النموذج الجيد للتربية الشرقية حيث اتصفت بروح المحافظة على القديم . . وغرس عادات فكرية وعملية مرضية . .

---

(١) أنثروبولوجيا التربية ـ د. زكى محمد اسماعيل ـ الهيئة العامة للكتاب ـ الإسكندرية ـ ١٩٨٠ صـ٤٦

ونلاحظ أن طرق التدريس الصينية قد عنيت بتدريب الذاكرة والحافظة لا بتكوين الفكر وتعهد الملكات . .

وقد ظهر فى الصين المصلح (لاوتسى) ممثلاً لروح التحرير والتقدم والثورة على العادات فووجه بالرفض ونال الإخفاق . . إلا أن (كونفوشيوس) كان أكثر المصلحين نجاحاً فى غرس الأخلاق العملية القائمة على سلطة الدولة والأسرة والفرد جميعاً . .

وكانت المدارس تمثل فى الصين القديمة نمطاً مميزاً للتربية . . وكانت تحت إشراف الحكومة الأمر الذى يجعلنا نتيقن من سلطة التوجيه الثقافى والتعليمى لعقول الصغار .

رابعا : التربية لدى الآشوريين والبابليين :

كانت للحضارة التى ظهرت حول وادى الرافدين ملامح ثقافية انعكست على الأدب والتهذيب والقيم السائدة . . ولاشك أن (ألواح سومر) المشهورة تشهد لنا بذلك شهادة لا يدانيها أى شك . .

على أن التعليم هنا لم يكن عاماً ولا إلزامياً . . فكان معظم الطلاب من الأسر الغنية أما الفقراء فكان من الصعب عليهم توفير المال والوقت اللذين يتطلبهما التعليم الطويل الأمد[1] .

وكانت المدارس تقدم الثقافة من خلال الأساطير وقصص

(١) أنظر : أطفالنا فى عيون الشعراء (مرجع سابق) صـ ٨١، ٨٣

الملاحم والتراتيل الدينية والمراثى والحكم الشعرية والنثرية . .

وقد أهملت مدارس آشور التكوين الخلقى للأطفال . . ويحدثنا التاريخ الدينى أن أولئك القوم استسلموا إلى شتى ألوان المجون والفوضى . . مما أغضب الإله فأنذر (نينوى) . . (وبابل) . . وما لبث أن هدم مدنهم ـ على حد تعبير الأساطير الآشورية والبابلية ـ .

خامسا : التربية لدى الامبراطورية الفارسية :

خلَّف الفرس تراثاً متميزاً للأجيال التالية . . وكانت العقيدة الفارسية تقوم على الزرادشتية التى جاء فى ثنايا تعاليمها : إن العالم من خلْق إله قادر وحكيم خيِّر . . ولكن روح الشر نازعت باستمرار ملكوته !

وتبدأ التربية ـ عادة ـ بالأسرة الفارسية . . حيث كان للأب سلطة مطلقة وكان الطفل يتعلم مهنة أبيه . . أما أبناء الأشراف فيتلقون طائفة من المعارف على أيدى المربين . .

وتسود الحضارة الفارسية كثير من الأساطير والملاحم ذات موضوعات تتعلق بالعالم وأصله . . وبأصل الإنسان . . وبالآلهة . . وبالحساب بعد الموت والبعث النهائى ومن أشهرها ملحمة الشاهنامة للفردوسى[1] .

(١) أساطير العالم القديم : صمويل كريمر ترجمة د. أحمد عبدالحميد يوسف ـ هيئة الكتاب ١٩٧٤ صـ ٢٩٥

سادسا : التربية فى مصر القديمة :

لم تكن التربية فى مصر القديمة من واجبات الرجل وحده . . فقد شاركت الأم زوجها فى ذلك مشاركة فعلية . . ولعلها بدورها هذا تبوأت مكانتها الاجتماعية والأسرية كذلك . . وأشاد بدورها الكتّاب والحكماء فى الأدب المصرى القديم . . ومن ذلك ما جاء على لسان الحكيم آنى : (أعط المزيد من الخبز لأمك . . واحملها كما حملتك . .) .

والغريب فى مصر القديمة أن التعليم قد تضمن ست مراحل تعليمية وتثقيفية[1] . هى :

١ ـ مرحلة تعليمية أولية ملحقة بالمعبد . . يتعلم فيها الصغير مبادىء القراءة والكتابة .

٢ ـ مرحلة تعليمية متقدمة فى مدارس نظامية تدرس فيها مواد مختلفة من الأدب والعلوم .

٣ ـ مرحلة تطبيقية فى مكاتب العمل فى الإدارات الحكومية .

٤ ـ منهاج تربوى تثقيفى ـ وهى مرحلة شبه حرة ـ .

٥ ـ ثقافة عالية تالية للمرحلة السابقة تعهدتها دور الحياة فى العصور المختلفة .

٦ ـ ثقافة متخصصة ومذاهب عرفت بها بعض المدن الكبرى والمعابد ومدارس الكهنة . .

---

(١) التربية والتعليم فى مصر القديمة د. عبدالعزيز صالح ـ الدار القومية ١٩٦٦ صـ ١٥١ وما بعدها

وتحفل كتب التاريخ المصرى القديم بمزيد من المناهج التعليمية والتثقيفية المختلفة والتى كان فى مقدمها تلك الحكم والأمثال التربوية . . والتى نصاب بالدهشة حينما نجدها تمتد بصداها فى كل ما جاء بعدها من كتب سماوية وآداب شعبية . . مما يدل على نفاذ بصيرة الحكماء . . وقدرتهم على الوصول إلى الحس الإنسانى العميق المشترك[1] .

سابعا : التربية اليونانية :

تسيطر على التربية اليونانية القديمة روح الابتكار والتجديد بعكس التربية الشرقية القديمة . . فقد اهتم اليونانيون بنمو الشخصية الفردية فى جميع مظاهرها . . كما جعلوا غاية التربية أن يصل الإنسان إلى الحياة السعيدة . .

وكثرت المدارس والمكتبات والفلاسفة والمفكرون الذين كتبوا واهتموا بالتربية مثل سقراط وأفلاطون فى جمهوريته . . وأرسطو وغيرهم ممن أرسوا كثيراً من أعمدة التربية للأجيال التالية . .

وقد تركت الحضارة اليونانية أدباً رفيعاً امتاز بالجمال والبساطة وصدق التعبير . . أبدع معظمه فى أثينا التى ظلت قرناً ونصف قرن المركز الأول للثقافة والفنون الجميلة . .

---

(١) أنظر الفصل الخاص بالتربية والتعليم فى مصر القديمة فى كتاب : أطفالنا فى عيون الشعراء مرجع سابق صـ٥٠

ثامنا : التربية الرومانية القديمة :

تعتبر التربية الرومانية بأساليبها المختلفة صورة منقولة عن التربية اليونانية . . فقد اتخذ الرومان أدب الإغريق مثلاً اتبعوه أدباء وفلاسفة . .

ولم تعرف روما المدارس إلا منذ نهاية القرن الثالث قبل الميلاد . .

وتدفقت كتابات الفلاسفة فيما بعد مثل : سيشرون وكوانتيليان وسينيكا وغيرهم يضعون مزيداً من أسس التربية الثقافية والفكرية والأخلاقية . .

ولعل أبرز ما يميز التربية الرومانية فى عهودهم الأخيرة أخذها بمبدأ التعليم الرسمى الذى تشرف عليه الدولة وتحرّمه فى إطار قيام التعليم الخاص والمدارس الخاصة . .

تاسعا : التربية لدى العرب القدامى :

فى الألف الأول قبل الميلاد ظهرت دول مختلفة فى الجزء الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية أهمها دول معين وسبأ وحضرموت . .

وتتضمن النقوش العربية القديمة طائفة كبيرة من أسماء الآلهة وألقابها . . وهذا يوحى بوجود نظام للآلهة بالغ التعقيد . .

وقد اتخذ التنظيم السياسى للدول العربية الجنوبية صورة ملكيات متحدة قوية . . وكان رأس الدولة هو الملك . . وشملت سلطته الدنيا والدين معاً . .

وكان عرب الشمال ينتمون كذلك إلى قبائل وعشائر وبطون كثيرة . . كما قامت مدن أخرى فى واحات الحجاز . .

وكانت أسواق العرب ومواسمهم مجالاً مهماً لتبادل الأفكار والآراء وحل المنازعات السياسية . .

وكان العرب قديماً يهتمون بتربية الطفل وينظرون إليه على أنه (رجل كبير) يدل على ذلك فخرهم بأبنائهم منذ يولدون . . حتى آخر يوم من حياتهم . .

وكان الشعر ديوان العرب وسجل حياتهم وحلهم وترحالهم . .

وحينما أشرق نور الإسلام على الجزيرة كان بمثابة الخلاص العظيم من كثير مما يعانيه العرب فكرياً وعقائدياً . . وسياسياً . . فقد ساوى بين البشر . . وأعطى الحق للصغير والكبير والغنى والفقير . . والقاصى والدانى دون تفرقة . .

والأمثلة كثيرة لا تقع تحت حصر فى نظرة العرب إلى أبنائهم على أنهم مشاركون فى صنع الحياة بل هم عناصر إنتاجية فى المجتمع يعملون . . ويحاربون . . ويشاركون فى كل نشاط اجتماعى وسياسى . .

وكان منهج الإسلام فى التربية يبدو فى تلك الوظائف الثلاث[1] :

١ ـ إبراز القيم الاجتماعية فى شعور الفرد .
٢ ـ حفز المواهب الفردية إلى النمو .
٣ ـ إعداد الفرد للحياة الاجتماعية .

وهذه الوظائف كلها ترمى إلى نتيجة واحدة هى إعداد الفرد للحياة العامة الاجتماعية .

وهناك نظريات مختلفة عربية إسلامية فى تعليم الصبيان والفتيات وفى نظرية الكتاتيب والمدارس . . ومن أشهر الذين كتبوا فى ذلك : أبوالحسن القابسى ـ ابن سينا ـ ابن مسكويه ـ إخوان الصفا ـ الغزالى ـ الزرنوجى ـ ابن خلدون وغيرهم . . ممن تحفل بآرائهم المصنفات المختلفة التربوية . .

. . . . . .

وبعد هذا العرض الموجز لصور التربية لدى الشعوب القديمة . . يتضح لنا أهمية التربية بأساليبها الثلاثة . . والتى لعبت دوراً فى إقامة الحضارات القديمة على أسس لا تزال آثارها ممتدة إلى عصورنا الحديثة . .

(١) التربية فى الإسلام ـ د. أحمد فؤاد الأهوانى ـ دار المعارف ١٩٧٩ صـ١٦٢

وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام . . فالثقافة لدى هذه الشعوب لم تكن تنفصل عن التعليم . . وهذا يعني أن الصغار كانوا يتلقون لونين من المناهج . . منهجاً تربوياً تعليمياً يرمى إلى تكوين قدرات الطفل اللغوية ومبادىء العلوم . . بما يؤهله إلى تلقى منهج التربية الثقافية أيضاً فى دور العلم . . وربما وُجد قديماً هذا التلاقى بين المنهجين لعدم وجود دور نشر تعنى فقط بالثقافة ـ كما هى الحال فى عصورنا الحديثة ـ وتقدم الكتاب الثقافى العام الذى يبتعد غالباً عن الكتاب التعليمى داخل المدارس . .

ولو أننا نظرنا إلى رؤية الأقدمين وحماستهم لتقديم الثقافة إلى جانب التعليم لأدركنا جدوى هذه النظرة وإثراءها لحياتهم الفكرية والعملية تلك الحياة التى أنشأت أنماطاً معجزة من الحضارات الإنسانية أعطت الكثير على مدى الأجيال . . ومع اختلاف الزمان وتعقد الحياة . . فإن العودة إلى مثل هذه الصورة اليوم تتطلب كثيراً من التفكير فى جوانب كثيرة ربما لم تكن توجد بنفس درجة الأهمية فى العصور القديمة . . لكنه على أية حال أمر يستحق التفكير . . !

***